أدب الرحلة من السيرة الذاتية إلى المتخيّل
قراءة في رحلة ابن حماد وش

د. علي حميداتو
قسم اللغة والأدب العربي
جامعة البليدة2 - (الجزائر)

1- الملخّص بالعربية:

يعتبر أدب الرحلة فن من فنون القول، عرفه العرب القدماء بداية من الفتوحات الإسلامية الكبرى، وألّف فيه المشارفة والمغاربة، ونحن في هذا المقام أردنا الحديث عن أحد الرحالة الجزائريين وهو: عبد الرزاق بن حماد وش الجزائري في رحلته المسمّاة "لسان المقال في النبأ عن الحسب والنسب والحال" حيث نتعرض فيها بالحديث عن أهمّ خصوصياتها، لعلّ أهمها من حيث البناء الفني، استعمال الهُجنة، ومن حيثُ أسلوبها توظيف أساليب علماء الكلام في الجدال والمعارضة، وهي سيرة ذاتية لمؤلفها ، لها من الخصوصيات ما يجعلها صورة صادقة عنه وعن العصر الذي عاشه، يتواشج فيه الواقع بالخيال.

2- الملخّص بالانجليزية:

Abstract

Travel literature is considered as one of the saying arts . The Arabs knew it from the beginning of the Islamic openings , especially the western and Eastern worlds . In the current article , we wanted to talk about an Algerian traveler **Iben Hamadouche Eldjazairi** in his voyage entitled ***"Lssan Elmakal fi Nabae An Elhassabi wa nassabi walhal"*** ,where we talk about its characteristics such as the use of colloquial in artistic building. Regarding its style the use of opposition and debate.

Thus we notice an autobiography of the writer where reality is related to imagination.

3- تمهيد:

يُجمع أغلب الدارسين لأدب الرحلة عند العرب أنّ الفتح الإسلامي، أو الفتوحات الإسلامية الكبرى كانت سببا في انتشار الرحلات التي قدّمت للعرب تجارب ومعارف جديدة كلّما توسعوا في هذه الفتوح وخلقت ظروفا أخرى جديدة اقتضت الرحلة والبحث. (1)

و لئن كانت الفتوحات الإسلامية سببا في انتشار الرحلة عند العرب في الزمن القديم، فإنها لم تكن السبب الأوحد والباعث على الرحلة بعد استقرار الدولة الإسلامية، ذلك أننا نجد أسبابا أخرى تدفع الرحالة إلى السفر سواء للتجارة أو العلم أو المتعة...إلخ ولعل من بين أيدينا ما يؤكّد ذلك وهي: رحلة ابن حمادوش الجزائري المسمّاة: لسان المقال في النبأ عن النّسب والحسب والحال(2) حيثُ يصرّح الرحالة محدّدا أنّ الذي دفعه إلى الأسفار هو هجران الأصدقاء له وتقلّب أحوال الزمان به (3) وإن امتهن التجارة أو طلب العلم في ذلك.

4-ابن حمادوش مولده وعصره وشيوخه.

أ/ مولده وعصره:

يذكر أبو القاسم سعد الله أنّ ابن حمادوش وهو(عبد الرزاق بن محمد بن محمد المعروف بابن حمادوش الجزائري) عاش خلال القرن الثاني عشر الهجري(الثامن عشر الميلادي)، وأنّه وُلد في مدينة الجزائر سنة1107 هـ(1695 م) وتُوُفي بعد حوالي تسعين سنة في مكان وتاريخ مجهولين، وأنه درس في وطنه وتزوّج به وتقلّد بعض الوظائف الدينية. ولكنه منذ العشرينات من عُمُره أخذ يجوب العالم الإسلامي،حيث بدأ بالحج، ثمّ حملته قدماه إلى المغرب الأقصى والمشرق في مناسبات أخرى، وأنّ أسرته كانت فيما يبدو تمتهن الدباغة، وابن حمادوش هذا عاش فقيرا لأنه امتهن العلم لا الدباغة (4)فلم يساير بذلك أهله.

كان ابن حمادوش شغوفا بالمعرفة والتنقيب في كتب العلماء، وكان يدعوا إلى قراءة كتب النصارى ولكنه يحذر مما تعلّق منها بالدين والعقائد(5) كما أنه طلب الاجازة بل ويُلحّ عليها في بعض الأحيان من علماء عصره ولعلّ أبرزهم " الشيخ البنّاني الفاسي يقول في قصيدة له في الشيخ المذكور :

سموت فلم يكن بقربك نازل فكنت في أوج العز تمطر بالسؤل
فأنت هو الشمس المنيرة في الورى لكهفك قد تأوي الركاب للظل
طلعت بأرض الغرب كنت نهارهم ففي نورك الإسلام تذهب في السبل
وقد حسد الشرق المغارب فيكم فأرسلني نروي الرواية بالنقل
رددت بنور العلم شموسهم فطالت ليالهم وملوا من الليل
أيا شيخنا البنّاني الاسم محمد فقد شهدت لك الأكابر بالفضل
كأنك لقمان في علمك والهدى أو أنك حسان إذا فهت بالقول
أبح لي أنل من بحر علمك غرفة أبل بها حرّ الفؤاد من الجهل
أجزني وأطلق لي رواية كلما رويته عن أشياخ غر أولي الطول(6)

ووشح بخطّك الشريف إجــازتي فذاك لها الزهر النضـيد مع الفــل
عليكـــم سلام الله في كل لحظة وأتباعك النجل الشريف على الفعل
وصل اله العرش عن خير مرسل وأفضل من حاز الشفاعة في الرسل(7)

يظهر جليّا من خلال هذه الأبيات ،أنّ صاحبها طلب الإجازة من الشيخ البنّاني، بل ويشكره سلفا على صنيعه(البيت ما قبل الأخير)* وإن كانت القصيدة بها أخطاء عروضية كثيرة(8)، وزحافات وعلل لم ينبّه عنها أصحاب علم العروض، فإنها صورة صادقة لأبن حمادوش، الذي شغف بالعلم وبالعلماء ناهيك عن طلب الإجازة منهم، بل وقد أجازه الشيخ الورززي(9)، الذي جادلة وألحّ في جداله، وهو ما سنراه لا حقا، حيث تتجلى لنا شخصية أخرى لإبن حمادوش العارف بأساليب المجادلة والمناظرة والحجاج، ولا جرم أنّه درس علم الجدال، أو قرأ عنه، وهو ما لم ينبّه عليه دارسوه، وإن كانت رحلته تخلوا من الإشارة إلى براعته في الجدال والمناظرة.

ب/ شيوخه.

جاءت رحلة ابن حمادوش حُبلى بعديد الشيوخ الذين أخذ عنهم العلم، مما يؤكد حرصه عليه، بله إجازة بعض العلماء من المغرب – كما نبّهنا سابقا-والمشرق له ومن شيوخه نذكر منهم:

- محمد الفاسي وهو(أبو عبد الله بن الشيخ الإمام الشهير البركة أبي محمد سيدي عبد القادر الفاسي (10).
- أحمد بن العربي بن الحاج(11).
- محمح بن أحمد القسمطيني(الكماد) وهو(أبو عبد الله سيدي ومولاي محمد بن أحمد القسمطيني الشهير بالكمّاد) (12).
- العربي بن أحمد بردلة (أبو عبد الله)(13).
- الحسن بن مسعود اليوسي(أبو علي) (14).
- أبو مدين بن الحسن المكناسي(15).
- عبد السلام القادري(أبومحمد) (16).
- علي بن محمد بركة التطواني (17).
- سعيد الحميري (أبو عثمان) (18).
- محمد بن أحمد المسناوي الدلائي (19).
-عبد الملك التجمعوتي (أبومروان) (20).
- أحمد بن يعقوب (أبو العباس) و- محمد بن عبد الرحمن التازي (21).

- محمد الطيب بن محمد الفاسي (أبو عبد الله) (22).
- محمد بن الصغير(أبو عبد الله) ، و – محمد بن قاسم بن زاكور(أبو عبد الله) (23).

فإذا كان هذا نزر من الشيوخ الذين أخذ عنهم ابن حمادوش العلم، فلا جرم أن ذلك سيجعل منه أحد أعلام عصره، وقد يكون ذلك سببا إضافيا دفعه إلى القيام بهذه الرحلة، ألا وهو حب العلم والولع بالعلماء وبكتبهم.

5- ابن حمادوش و جداله مع الشيخ الورززي في أفضلية الملائكة أو الرسل:

ذكرنا فيما سيق أن الشيخ الورززي أجاز ابن حمادوش، ومع ذلك فلم تشفع له إجازته له بأن جادله وحاججه بطريقة أهل العلم بالجدال ، وهو إذ ذاك عارف بأساليب علماء الكلام في المناظرة، وهو ما سنبيّنه في النص الآتي: يقول ابن حمادوش في رحلته: " حضرت مجلس الشيخ أحمد الورززي بجامع عند باب الملاّح، يدرّس التفسير ، فألفيته أوّل ليلة في قوله تعالى: ولمّا جاءت رُسُلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ضرعا من سورة هود، وكان ليلة الأحد رابع عشر محرّم، إلى ليلة الثلاثاء ثالث وعشرين الشهر المذكور، فقرأ قوله تعالى: ما هذا بشرا إن هذا إلاّ ملك كريم من سورة يوسف، فقال: ووجه تشبيه النسوة يوسف بالملك ما جُبل في قلوب الخلائق من تفضيل الملك على الإنس.

فقلت له: إنّ الأشعري يأبى هذا. وظننت إنّي لجأت إلى كهف حصين. فغضب وقال: ما هو إلا أن حبّه أُشرب في قلوبكم. فأمسكت عنه إلى الغد. فالتقيت معه في جامع لوكس، فقلت: أتقول بتفضيل الملك على الأنبياء ولم تستثن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلّم؟ قال لي: أوليس يقول الله تعالى: علمه شديد القُوى، وهو جبريل، ولا شكّ أنّ المعلم أفضل من المتعلم؟ ثم لمّا أكثر عليّ ، قلت له: إنّي لم أستحضر الجواب. ومن جُملة ما قال لي: وأنّ أبا الحسن الأشعري لم ينعقد عليه إجماع الأمة بل انعقد عليه إجماع أهل السنة. فقال: اذهب فاستنجد عليّ بمن شئت، فذهبت أفكّر في الجواب، فوجدته عمّم فيه فاستحضرت منه جوابا.

ثمّ تكلمت مع الشيخ الفاضل البنّاني فقال لي: ما لك ولذلك المعتزلي. إنّه قد جمع من مذاهب المعتزلة أربعة مذاهب، معتزلة وقدرية، وعدّ اثنين آخرين، ثمّ قال لي: لئن كان دليله من الكتاب فدليلنا على أفضلية النبي من الكتاب، وهو قوله تعالى: وعلّم آدم الأسماء كلّها ثم عرضهم على الملائكة. فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علّمتنا إنّك أنت السميع العليم. قال يا آدم أنبأهم بأسمائهم. فيه دليل على أنّه علّم الملائكة أجمعين. والإجماع منعقد على أنّ سيّدنا محمدا صلّى الله عليه وسلّم، أفضل منه، فهو أفضل من الملائكة.

فلمّا كان الغد، أتيته، فأتى بكتاب فيه إجماع أهل السنة منعقد على أنّ الأنبياء أفضل من الملائكة، وإجماع المعتزلة منعقد على أنّ الملائكة أفضل. قلت: أليس هذا شاهدا لي؟ قال: لا. قلت: ألم تقل إنّك أخذت تفضيل الملائكة من قوله تعالى: علّمه شديد القوى؟ قال: نعم/ قلت: يلزم من دليلك أن يكون جبريل وحده أفضل لا جميع الملائكة. قال: هو أحدهم، وجنس الملائكة أفضل من جنس الآدميّ. قلت: إن كان هذا، فلي دليل يردّه، قلت: قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم. فهذا دليل على أنّ آدم علّم جميع الملائكة، فهو أفضل من كُلّهم صراحة بخلاف دليلك. فقال لي: أولئك الملائكة غير هذه. فقلت له: ألست تقول: الجنس؟ فقال : ليس هكذا. فقلت: أيٌّ مذهب تتّبع؟ قال: أنا لا أقلّد أحدا. قلت: فلم تُدرّس سيدي خليل؟ قال لي: أمّا في الفروع فأقلّد مالكا وأمّا في الأصول فلا. فقلت: فما يُقال فيك؟ قال: أنا رجل محمّدي. فقلت: ومن يبلّغك الكتاب والسنة إن لم تقتف آثار هؤلاء؟ ثمّ انصرفت عنه. فلم أعد إلى مجلسه أصلا. نسأل الله أن يهدينا ويهديه إلى الحقّ، والسلام...(24)

ذكرنا النص على طوله ههنا حتى يتضح المراد من عملنا ، وليكون شاهدا على هذا المنزع الكلامي لابن حمادوش، الذي ذكرنا أنّه لم ينبّه أحد- في حدود ما قرأنا- من دارسيه من القدماء والمحدثين على منزعه هذا.

ذلك أنّ ما يرتكز عليه التقاول أو التحاور في تصوّر النظرية التعارضية هو الآلية الخطابية المعروفة باسم التعارض(25) والنص الذي بين أيدينا خير مثال على ذلك حيث يضطلع المتحاور بالقيام بدورين في نفس الآن فيكون مرة معترضا كما هو الشأن هنا في اعتراض ابن حمادوش على دليل الشيخ الورززي في تفضيله جنس الملائكة على الأنبياء من القرآن الكريم، أو لنقل جنس الملائكة على الإنس، وأخرى عارضا دليله من كتاب الورززي الذي فيه إجماع أهل السنة على أفضلية الأنبياء على الملائكة، ثم عارضا دليلا آخر من القرآن على طريقة الورززي من سورة البقرة، وهو تعليم آدم عليه السلام جميع الملائكة.

وما كانت هذه طريقته في التحاور أو التقاول هو ما يسمّى بالتحاج، ويكون بأساليب عدّة منها أن يأتي المتحاور فيثبت قولا من أقاويله بدليل ثم يعود إليه بدليل أقوى منه(26).

نرى في هذا النص- الذي بين أيدينا- مسلك ابن حمادوش الحجاجي في بسطه للدليل الأوّل وهو من (كتاب الورززي الذي أتى به) والذي فيه إجماع أهل السنة على أفضلية الأنبياء على الملائكة، ولمّا تيقّن المعترض(ابن حمادوش) من ضعف هذا الدليل، وعدم قبول (الشيخ الورززي له)ن وقد يكون ذلك بسبب نزعته الاعتزالية – كما أخبره بذلك شيخه البنّاني- أعاد دحضه للدليل المقدم من طرف الورززي وأثبت رأيه/ قوله بدليل آخر من القرآن.

يتبيّن لنا هنا وبوضوح أنّ الدليل لا يقوى على غيره بنفسه فقط بل بما يقتدر معه على دفع ودحض ما يعترض به عليه، حتى تصير ساحته خالية من أدنى شكّ يتطرق إلى قوته بما يردّ عليه، وهو أقوى وأحجى(27)، وتلك هي طريقة ابن حمادوش في تحاوره للورززي.

يتضح مما سبق أن ابن حمادوش شديد التأثر بأساليب علماء الكلام في دحض حجج خصومهم، ويظهر كذلك أنه متمرّس بهذه المسالك، والظاهر أنه منهم لعلمه بأساليب الحجاج/ التحاج إذ تسمى طريقته هذه بالمعارضة والتي تحدد اصطلاحا: بأن يدلل على نقيض مدلول الخصم أو على نقيض إحدى مقدماته(28) وهو ما جاء أنموذجه في النص السابق.

6- خصائص رحلة ابن حمادوش.

الرحلة نمط خاص من أنماط المقول الأدبي، ومع ذلك فهي تتعرض إلى جميع مناحي الحياة لما تتضمّنه من مادة للمؤرخ وللجغرافي، ولعلم الأنساب، ولعلم الاجتماع وغيرها،فهي إذن أمشاج من وصف لعلوم عديدة أتقنها مؤلفها، وبرع فيها، ومن كان من العلماء الذين برعوا في هذه العلوم وأخذ عنهم الرحالة، كما أنها جملة أخبار مختلفة لصاحبها، ومشاهدات عينية، وهي إذ ذاك أضحت عبارة عن كشكول به استطرادات عديدة –بتعبير محقق الرحلة- ولأجل ذلك لا غرابة أن نجد فيها بعض الخصوصيات لعلّ منها استعماله للهُجنة وهي قيمة سلبية في الرحلة.

أ/ الهُجنة:

تعرّض محقق الرحلة وهو الدكتور أبو القاسم سعدالله –رحمه الله- إلى بعض قيم الرحلة ومنها السلبية، حيث نعتها بأنها مفتقرة إلى وحدة الموضوع وأنها مليئة بالاستطراد الثقيل، وأنها لا تدل على القدرة العقلية لمؤلفها لما فيها من ضعف وتخلف(29) ولكنه لم يشر إلى ما فيها من هُجنة سلبيةعجيبة، ولعلّه – رحمه الله- أراد التنبيه إلى عمومها لا خصوصياتها والتي هي مدار تنبيهنا ههنا.

1- (تزينة une dizaine) و(ششية) و(سارميتي): وردت هذه الألفاظ واستعملها المؤلف(ابن حمادوش) في ذكر طبيعة السلعة التي كانت معه في أثناء رحلته إلى المغرب، يقول: " وكان عندي صندوق فيه ثلاثة وأربعون تزينة ششية تونسين وسبعة عشر حزام حرير وقصاب زبد، فأُخذ في المكس مني حزاما حريرا وخمسة وعشرين شاشية زوج تزينات وواحدة. وجملة سارميتي في هذه السفرة المباركة ثمانون ومائتا سلطاني ذهبا، منها ثمانية وعشرون قراضا واثنان وخمسون ومائتان لي".(30).

2- (البونبة une bombe) و(البومباجي) و(علم البونبة): ذُكرت هذه الألفاظ في معرض حديث الرحالة عن تأليفه في هذا العلم يقول: " إلى يوم السبت حادي عشر ربيع الأول الموافق لثاني وعشرين مارس خرجت لباب الواد مع أسط محمد ابن البونباجي بمهراس صغير لنتعلّم رمي البونبة، فتممت ما بقي لي.والحمد لله، وأخذت علو البونبة بارتفاعها وتعميرها ورميها وعجن بارودها. فأنا من علمائها. والحمد لله. وجمعت فيها إلى تأليف سيدي عبد الرحمن الفاسي" (31).

3- (كارطة La carte): ذكر المؤلف هذا اللفظ في أثناء حديثه عن رسمه لخارطة رياح البحر، يقول الرحالة: " وفي يوم الاثنين ابتدأت عمل كارطة رياح البحر، وهي صنعة هندسية سهلة المأخذ: تدور دائرة بقناص بلا حبر، ثم تخط من كل ناحية من نواحيها الأربع خطا أسود، تصير الدائرة خطوطا مربعة، ثم تقسم الدائرة على اثنين وثلاثين قسما متساوية، وتخط خطوطها بعد أن تجعل مركزها ومركز كل قسم كذلك، وتخط من كل إلى الأخرى خطا، تكون. والله المستعان" (32).

ذكرنا ههنا نماذج من توظيف مؤلف الرحلة(ابن حمادوش) للهجنة، ناهيك عن استعماله للعامية، وهي مستوى لا يليق برجل عُرف عنه الشغف بالعلم وبالعلماء، بله علمه بأساليب علم الكلام، والظاهر أن المؤلف أولع إيلاعا شديدا بالنصارى، كيف لا وهو يقرأ كتبهم، ويحذر منهم حينما يتعرضون لمسائل العقيدة والدين- كما أسلفنا القول- وقد يكون ذلك من جملة تقليده لهم، إذ أنّ ما عُرف عنه أيضا قرأ ألفية ابن مالك، وله فيها حاشية، فكيف بعالم نحرير يطوي عنق الكلام نحوا وصرفا أن يستعمل العامية أو كلمات أجنبية لها مرادف في اللغة العربية، وهو ما يعرف في النقد الثقافي بالهجنة؟ اللهم إلا إذا كان ذلك من باب تقليد الغالب، والحقيقة أن محقق الرحلة (أبو القاسم سعدالله) قد نبّه إلى هذا الضعف في الصياغة الفنية، وأنّ ذلك لا يعكس المستوى العقلي لعالم وطبيب وصيدلاني، وفقيه وعالم من علماء اللغة مثل ابن حمادوش. (33)

ب/ الرحلة سيرة ذاتية لمؤلفها. تعتبر رحلة عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري قطعة هامة من تراث الجزائر الوطني خلال القرن الثامن عشر – كما يقول أبو القاسم سعد الله-(34) إلا أنه في أثناء مقارنته بين هذه الرحلة وأعمال أخرى جزائرية كُتبت خلال الفترة نفسها منها (التحفة المرضية) في سيرة الداي محمد بكراش، و(الثغر الجماني) في سيرة الباي محمد الكبير، و(نحلة اللبيب) في التشوق ولاستعداد للحج إلى بيت الله الحرام، و(نزهة الأنظار) للورثلاني وهي رحلة

حجازية قال عنها أي- رحلة ابن حمادوش: " إنها رحلة لا تتحدث عن سيرة شخص كالكتابين الأولين، ولا عن ملابسات الحج كالكتابين الأخيرين" (35).

نرى في هذا النص، أن أبا القاسم سعد الله ينفي عنها طابع السيرية، أي أنها ليست سيرة ذاتية كما نذهب نحن إلى ذلك، وإذ نخالفه الرأي فيما ذهب، فلأننا من جهة نجد المؤلف نفسه إذ يستطرد في حديثه عن قيمة الرحلة مستفيضا يذكر أنها مصدر لحياة مؤلفها إذ يقول: " وهناك قيمة أخرى لهذه الرحلة وهي أنها مصدر لحياة مؤلفها "(36) مما يعني أنه يثبت لها طابع السيرة الذاتية، ولكنه إذ يقارنها بالكتب السابقة من حيث الصياغة الفنية، وأسلوب الكتابة، يجد أنها دون ذلك وإلاّ كيف نفسر قوله فيها: "أما هذه الرحلة ففيها كما عرفنا الكثير عن أخباره ونشاطه العلمي وتآلفه وأسفاره وعلاقاته " ؟ (37) ويقول أيضا :" هكذا يتضح أنه بالرغم من بعض نقاط الضعف فإن رحلة ابن حمادوش تتمتّع بقيمة نادرة كجزء من التراث العربي الإسلامي للجزائر وكمصدر لمعرفة الأحوال الاجتماعية والثقافية والسياسية وكسيرة ذاتية للمؤلف نفسه "(38).

يتضح مما سبق ذكره أنّ (أبا القاسم سعد الله) لا ينفي عن الرحلة طابع السيرة الذاتية – كما رأينا في قوله السابق- وإنما بسبب ضياع الجزء الأول من الرحلة فإنها حسب رأيه لم تعد سيرة كاملة لصاحبها، ولو وُجد المفقود منها لكان حتما أكّد لنا طابعها السيري. ونحن إذ نذهب إلى اعتبار الرحلة سيرة ذاتية لمؤلفها، أو فيما توفّر لدينا منها للاعتبارين التاليين:

1- تأكيد محقق الرحلة أبو القاسم سعد الله، في مقولته أعلاه (سيرة ذاتية للمؤلف نفسه) هذا من جهة، ومن جهة أخرى:

2- أنها تستجيب لميثاق السيرة الذاتية كما حدّدها (فيليب لوجون) حيث أنّ هذا الأخير حدّ السيرة الذاتية كالآتي:

الحدّ: حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركز على حياته الفردية وعلى تاريخ شخصيته، بصفة خاصة، ويعرض هذا الحدّ عناصر تنتمي إلى أربعة أصناف مختلفة:

1- شكل اللغة:

أ/ حكي.

ب/ نثري.

2- الموضوع المطروق: حياة فردية، وتاريخ شخصية معينة.

3- وضعية المؤلف: تطابق المؤلف (الذي يحيل اسمه إلى شخصية واقعية) والسارد.

4- وضعية السارد:

أ/ تطابق السارد والشخصية الرئيسية.

ب/ منظور استعادي للحكي (39).

ونحن إذ نطبق هذا الحدّ على رحلة ابن حمادوش فإننا نجد أنه يستجيب له، وإن كان ابن حمادوش نفسه الذي في النص وخارجه، يقول (فيليب لوجون): " ليس المؤلف مجرد شخص، إنه شخص يكتب وينشر ولأنه متواجد خارج النص وفي النص فإنه يعتبر صلة بين الإثنين ويتحدد باعتباره شخصا واقعيا مسؤولا اجتماعيا ومنتجا للخطاب في الوقت نفسه(40).

وتفترض السيرة الذاتية (القصة التي تحكي حياة المؤلف) أن يكون هناك تطابق بين المؤلف(كما يدرج عن طريق اسمه في الغلاف) وسارد الحكي، والشخصية التي يتم الحديث عنها(41). ونحن أمام هذه المحدّدات نجد أن الرحلة كما حققا أبو القاسم سعد الله للرحالة (عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري) وهو نفسه مؤلف الرحلة، وهذا ما تفترضه السيرة الذاتية . ولأجل ذلك فهي سيرة ذاتية استنادا للاعتبار السابق وهذا الذي بين أيدينا.

وحتى لا يلتبس هذا النمط مع أنماط أخرى مشابهة له فإن (فيليب لوجون) نبّه في كتابه إلى هذه الأنواع وهي التي لم يتحقق فيها الحدُّ السابق ، وذكر منها حصرا ما يلي:

- المذكرات.
- السيرة.
- الرواية الشخصية.
- قصيدة السيرة الذاتية.
- اليوميات الخاصة.
- الرسم الذاتي أو المقالة (42).

إن رحلة ابن حمادوش مليئة بما أورده فيها من مشكلات حياتية في أثناء مكوثه بالجزائر وهو قسم طافح بالأخبار عن حياته الشخصية وما عاناه من شظف عيش وفقر شديدين حتى أنّ حياته مع عائلته استحالت إلى نفور ومن أقرب المقربين لديه كأُمّه وزوجه وفي ذلك يقول:" باتت أمي عندي فأخذت تلوم سعدي، حتى قالت: يا ليتني لم ألدكم ذكورا لسوء سعدكم . وكنت تعبت في السنة الماضية في المغرب من مرض وخسارة وضيق ، ولم أر قطّ ما رأيت فيه من ضيق العيش والخسارة ، والعياذ بالله حتى أيقنت الهلاك. فقدمت ووجدت من الزوجة مثل ذلك . ولم أرها فرحت بقدومي ، لأنها أيقنت أنّ أكثر المال ضاع لي فلم يبق لها غرض فيّ، ولم

ترلما عندي من العلم، فإنه كما تقدم في إجازتي في الجزء الأول، وفي هذا أدرس في كل علم، وأخذته قراءة. ولم آخذ إجازة إلا الكيميا والسيميا والموسيقى. فلم أحظ بهذه العلوم عندها" (43)

ج/ المتخيل في رحلة ابن حمادوش.

عانى مؤلف الرحلة من مشكلات عديدة، لعلّ أهمها صدود زوجه عنه(الزوجة الثانية) – كما رأينا في النص السابق- وخروج أهله عنه وضياع ماله في التجارة، بسبب إهماله لها، وهو إذ ذاك لم يكن تاجرا محترفا حيث ذكر لنا في الرحلة كساد تجارته والظاهر أنه لم يكن على علم بما يتاجر أو يبيع ويشتري.

فصدود الزوجة عنه ، وطلب الفراق منه(44) ماثل أمام عينيه لأنه لم يهنأ بها كزوجه تطمئن إليها نفسه وتستقر في أثناء ترحاله وأسفاره، ولأجل ذلك نلفي في الرحلة مواطن عديدة من الحكايات والنوادر، والأساطير التي ينقلها أو يؤلفها من نسيج محفوظه وفيض خياله ينتصر فيها للحب دوما، وللنهاية السعيدة بالزواج وخير مثال على ذلك نذكر الحكايات الآتية التي هي دليل على تخلل الرحلة للخيال ممتزجا بعبق الواقع الذي يؤلمه، تارة ويسخر من الحياة والناس في مقاماته تارة أخرى، ومن الحكايات: قصة حبّ (45) قصة طفيلي (46) حكاية العنقاء مع سيدنا سليمان(47)، وهذه الأخيرة التي تعبر بصدق عن استسلامه لقضاء الله وقدره في كل شيء، ولذلك جاءت هذه الحكاية وابتدأها بقوله: " وفيه ابتدأت مطالعة سرد قصة لم تسمّ فيها حكاية العنقاء مع سيدنا سليمان.." (48) وهي في مسألة (القضاء والقدر) ، حيث علّق المحقق عليها عقب قول ابن حمادوش(سيرة لم تسمّ) قوله في الهامش: كذا في الأصل وقد تعني أنها مجهولة المؤلف أو أنه لا يذكر اسمها(49).

وحين نتصفح الرحلة نجد أنّ الحكاية جاءت في شكل استطراد واقعة بين حديثه عن البخاري الذي لم ينهه على هذا الشكل:

العودة إلى قراءة البخاري- حكاية العنقاء مع سيدنا سليمان- العودة إلى قراءة البخاري. فالمؤلف لم يتمم حديثه عن قراءة البخاري إذ يفجأنا بهذه الحكاية وحينما ينهيها وينتصر فيها للقضاء والقدر يعود مرّة أخرى إلى البخاري، مما يجعل الغرض منها أو الغرض من سردها هو: الإمتاع والمؤانسة فقط ولأجل ذلك لم يسمّ مؤلفها، وقد يكون هو بنفسه من نسجها ، وحينها يمكن إضافتها كدليل على فساد عقيدة المعتزلة في مسألة القضاء والقدر هذا من جهة، وأخرى نرى فيها ابن حمادوش –إذا كانت الحكاية من تأليفه-(50) كيف ترك لخياله سرد أحداث أقلّ ما يقال عن إحدى شخصياتها بأنها أسطورية (طائر العنقاء الأسطوري) وكيف يجعل منها ضمن

ما سُخّر لسيدنا سليمان من طيور، وكيف أنها ترضع آدميا وتتعهّدهُ بالرعاية، ومع ذلك فإن جمالية السرد والصياغة الفنية جعلت منها حكاية متجانسة متوفرة على أهم عناصر الحكي المتخيل، آخذ بعضها بتلابيب بعض وكأنها حكاية حقيقية، وكأن العنقاء عادت إلى الحياة بعد موتها من غابر الأزمان، وكيف جسّد لنا الرحالة في نهاية الحكاية انتصار لقضاء الله وقدرته في خلقه.

ولأجل ذلك كُلّه نلفي (عمر بن قينة) في كتابه : الأدب الجزائري الحديث يتعرض إلى ما في أدب الرحلة من واقعية وخيال حيث يقول: " أدب الرحلة وصف لكل ما انطبع في ذهن الرحالة عبر مسار رحلته وفي احتكاكه بالمحيط يتآزر في ذلك الواقع والخيال، وأسلوب القص والحقائق العلمية والتاريخية والجغرافية والاجتماعية والنفسية.."(51).

إن مؤلف السيرة الذاتية - باعتبارها أحد فنون القول، تنتمي إلى الأدب العربي -مضطلع في هذه الرحلة بمهمتين أساسيتين ألا وهما: التدوين التاريخي للوقائع ثم الصياغة الفنية من حيث نسج السيرة ككل لأنها أداة للتوصيل الأدبي يقول (عبد العزيز شرف): "هكذا نرى أنّ الترجمة الذاتية باعتبارها جنسا أدبيا ينطلق من إطار الاهتمام الإنسان بسيرته الشخصية تحمل في طياتها ضربين من الازدواج: تراكب غرض ظاهر مع غرض باطن من جهة ثم تضافر استقراء موضوعي مع تسويغ ذاتي من جهة أخرى ، فإذا بهذا الازدواج المتضاعف يستحيل معا ظلة فنية لا يُقاس توفُّق الكاتب في هذا الجنس الأدبي إلا بمدى إحكامه لنسج ضفيرتها"(52).

إنّ الإحساس التاريخي في رحلة ابن حمادوش وإن كان مُتّجها إلى الماضي فإنّه وظيفيا لا يتخلّى عن الحاضر أو عن المستقبل نظرا(للارتباط الحياتي بينهما وبين الماضي ولأن معرفة الماضي إنما تتمُّ وتفيدُ بقدر ما تُسهم في إدراك الحاضر والإعداد للمستقبل) (53) .

ولأجل ذلك نلفي رحلة ابن حمادوش الجزائري، وإن طغى فيها الوصف فإنها مع ذلك حبلى بالإخبار الماضية التي نستشف من خلالها شخصية الرحالة وكيف يتطلع حالما متخيلا إلى ما يصبو إليه مستقبلا، أو أن تكون نبراسا لقارئها وقد يستخلص منها فلسفة حياة ، لما فيها من تعريف بالظروف العامة المحيطة بالرحلة (الإخبار) والتعليق عليها، والسخرية منها في بعض الأحيان، كما أنها تعطي صورة على التراث الاجتماعي وحينها يُنقل من جيل إلى جيل بوساطة الرحلة، كما أنها تغري قارئها بمواصلة إتمامها لما يتخللها من استطرادات وحكايات ولطائف يكون غرضها الإمتاع والمؤانسة وهي من الأغراض الوظيفية في الرحلة -كما رأينا-. ذلك أن من جملة الافتراضات الوظيفية للسيرة لا تخرج عما حدّده (عبد العزيز شرف) في ستة عشر عنصرا وهي على التوالي:

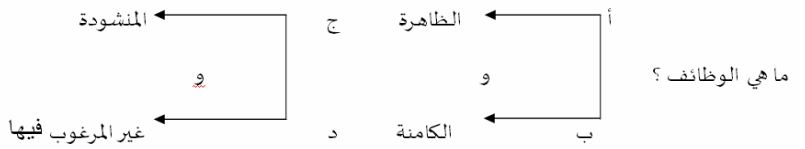

للسيرة الذاتية التي تتغيّا:

هـ - التعريف بالظروف المحيطة: التأريخ

و - التوجيه والتفسير.

ز – نقل التراث الثقافي.

ح – الإمتاع والمؤانسة.

ط – البحث عن الجذور.

ي – الإفضاء والاعتراف.

ك – التعرّف والمشاركة الوجدانية.

بالقياس إلى :

ل – الكاتب.

م – المجتمع.

ن – الجماعات الفردية.

س – الفرد.

ع – النظم الثقافية.

فإذا كانت هذه العناصر المذكورة تحدد إطارا أكبر للافتراضات التي تحدد وظائف السيرة، فإننا نجد فيها ما يمكن أن يكون النموذج الوظيفي لرحلة ابن حمادوش .

7- النماذج الوظيفية في رحلة ابن حمادوش:

1- التعريف بالظروف العامة المحيطة(الإخبار) ورأينا كيف تتضمن الرحلة جملة هذه الأخبار.

2- التعليق على هذه الإخبار والظروف المحيطة، وكنا قد أسلفنا الذكر كيف أن الرحالة كان يسخر من الناس ومن الحياة كما هي في مقاماته(54) ويعارض شيوخه كما في مناقشاته للشيخ الورززي.

3- نقل التراث الاجتماعي من جيل إلى جيل، حيث نرى في الرحلة أخبارا وطقوسا عديدة للمجتمع الجزائري والمغربي على حدّ سواء في الأعياد الدينية، والاحتفالات بمولد النبي صلى الله عليه وسلم، وهي شهادات عينية للمؤلف استقاها من مصدرها خلال فترة ترحاله ولنقل عادات أهل المغرب في القرن الثامن عشر.

4- الترفيه والتسلية، وكنا قد رأينا سرده للحكايات التي لا يكون منها الهدف إلا امتاعا مؤانسة لا غير.

8- الخلاصة:

إن رحلة (عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري) لا تختلف كثيرا عن الأدب الاعترافي في تراثنا العربي، ولعلّها امتداد تاريخي لها من أمثال كتابات طه حسين في (الأيام) والعقاد في (أنا) وأحمد أمين في (حياتي) وتوفيق الحكيم في (سجن العمر) وأنيس منصور في (صالون العقاد) و(إلاّ قليلا) والكثير من كتبه الأخرى، وثروت أباظة في كتابه (ذكريات لا مذكّرات)(55).

فالرحلة لأجل ذلك ليست فنا منعزلا عن بقية الفنون الأخرى التي عرفها العرب حديثا بل هي امتداد تاريخي لها وحلقة من حلقات تطور الأدب الإعترافي، فهي من وجهة نظر حديثة تمثّل بامتياز سيرة ذاتية لمؤلفها ابن حمادوش.

9 – المراجع والمصادر:

1- حسين أحمد حسين، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس، لبنان،ط2 ، 1983، ص06.

2- عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، رحلة ابن حمادوش، تحقيق أبو القاسم سعد الله، ضمن الأعمال الكاملة للدكتور أبو القاسم سعد الله 13 تحقيق التراث(2)، دار الغرب الإسلامي، ط2، 2005.

3- أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري، حياته وآثاره،(د.ت)ص33.

4- رحلة ابن حمادوش، مقدمة المحقق، مرجع سابق، ص09. بتصرف.

5- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، دار البصائر ، الجزائر، ص450 بتصرف.

6- أجرني بدلا من أجزني هكذا وردت في الرحلة، تح: أبو القاسم سعد الله، والظاهر أنّ خطأ مطبعيا وراء حذف الاعجام، لأن السياق يقتضي طلب الإجازة، ينظر: رحلة ابن حمادوش، مرجع سابق ص39.

7- نفس المرجع، ص39.

* أجاز الشيخ البناني ابن حمادوش، ينظر الرحلة، ص62.

8- نبّه محقق الرحلة إلى هذه الأخطاء ، بل وأكّد أن شعره فيه أخطاء كثيرة، وأنّ بها ضعفا وكسورا، يعني الوزن، ينظر: أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة، مرجع سابق، ص40 وما يليها.

9- ومن صورة ما ينقله ابن حمادوش عن الشيخ الورززي الذي أجازه بخطه يقول:(...فأجزته أن يروي عنّي الكتب الستة، أعني البخاري ومسلما وأبا داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وموطأ مالك ومسند أحمد بن حنبل..) ينظر الرحلة، ص37.

10- الرحلة ، ص 40.

11- الرحلة ، ص42.

12- الرحلة ، ص43.

13- الرحلة ، ص44.

14- الرحلة ، ص45.

15- الرحلة ، ص46.

16- الرحلة ، ص47.

17- الرحلة ، ص47 .

18- الرحلة ، ص49.

19- الرحلة ، ص50.

20- الرحلة ، ص53.

21- الرحلة ، ص56.

22- الرحلة ، ص57.

23- الرحلة ، ص58.

24- الرحلة ، ص65 إلى الصفحة 67.

25- إدريس مقبول، الأسس الإبستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2007، ص94، و لمزيد من الإيضاح ينظر كذلك، كتب طه عبد الرحمن: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، والتكوثر العقلي.

26- نفسه والصفحة نفسها.

27-نفسه، ص95.

28- نفسه، ص100.

29- الرحلة، مقدمة المحقق، ص24 بتصرف.

30- نفسه، ص32.

31- ينظر الرحلة، ص254، كما ذكره الرحالة أيضا في الصفحة253 في معرض حديثه عن تعلمه(البونبة).

32- الرحلة، ص32.

33- مقدمة التحقيق، ص24.

34- أبو القاسم سعد الله، الطبيب الرحالة، مرجع سابق، ص76.

35- نفسه، ص76.

36- نفسه، ص77.

37- نفسه، ص77.

38- نفسهن ص79.

39- فيليب لوجون، السيرة الذاتية، الميثاق والتاريخ الأدبي، ترجمة وتقديم: عمر حلّي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء،ط1، 1994، ص22 وما يليها.

40- نفسه، ص34، وما يليها.

41- نفسه، ص34.

42- نفسه، ص23.

43- الرحلة ن ص115.

44- نفسه، ص115.

45- الرحلة ، ص172.

46- الرحلة ، ص 177 وما يليها.

47- الرحلة ، ص220 وما يليها.

48- الرحلة، ص220.

49- هامش الرحلة، ص220، رقم:592.

50- الحقيقة أننا لا نملك دليلا تاريخيا على أنّ الحكاية من نسج خيال مؤلّف الرحلة ولكنها، أقرب إلى الظن من أن تكون من تأليفه لعدم وجود ما ينفي ذلك في حدود اطلاعنا في كتب القدماء.

51- عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص97 وما يليها ، بتصرف.

52- عبد العزيز شرف، أدب السيرة الذاتية، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، الجيزة، مصر، 1992، ص111.

53- قسنطين زريق، نحن والمستقبل، بيروت، دار العلم للملايين،1977، ص12، نقلا عن: عبد العزيز شرف، أدب السيرة الذاتية، مرجع سابق، ص115.

54- تضمنت الرحلة ثلاث مقامات، وهي على التوالي: المقامة الأولى، ينظر الرحلة، ص71، المقامة الثانية مسمّاة بالمقامة الهركلية، ينظر الرحلة، ص78، المقامة الثالثة، مسمّاة بالمقامة الحالية، ينظر الرحلة، ص164.

55- عبد العزيز شرف،أدب السيرة الذاتية، مرجع سابق، ص89.